

الفدائي

بدر توفيق

باسم من
كلُّ هذي الحياة التي دمدت في إهابك
حين طوّقت بالديناميت ذراعَيْكَ
سابقك، خصرك، صدرك، ظهرك
وانفجرت بأعوامك العشرين
قتلاشيت من هيئة البشر الفانين
وصعدت السماء كعاصفة من حمم اليقين
لترد الأيادي إلى زرعها
والغصون إلى جذعها
والعيون إلى دمعها؟

• • •

يا لهذا السحر وهذا العطر!
لكأنك بركان ماء تفجر في الصخر
بعد سمّ الصبر وكيّ القهر،
أيها الزممي الذي شقّ صحراءنا
فروانا وهشم أغلانا!
أي أمّ سقتك وأيّ أب سلّحك
فغدوت السياق الأصيل
وازدهرت على أفق الروح قوساً من الزهر
وندى من رحيق الفجر
وتجاوزت في سرعة الضوء أفكارنا
واشتعلت لتدفننا وتطهر بالنار أعضاءنا
وتعيد اللون لأسمائنا
وكنا نحن منكمشين ومرتعشين
في ضلوع العمر
ورقاب السنين!

القاهرة

في آن واحد. هنّ فيه المسجونات حقاً، ولكن لا يمكن تبرئتهن كلية من دور السجنانات كذلك. ويتمثل هذا البعد في شخصيتهنّ أكثر ما يتمثل، لا في مسؤوليتهنّ عن سجنهنّ فحسب، ولكن في قدرتهنّ على إغلاق السجن على التهامي حصيرة الذي عرّته «بهجة» من ادعاءاته الزائفة، ثم أحكمت مع شقيقتيها رتاج السجن عليه.

* * *

والشقيقات الثلاث، باعتبارهن واقعا واستعاراً معاً، يعشنّ على هامش التاريخ القومي والشخصي معاً. كلّ ما يجمعهن هو رفضهن للموت. لكن أيكفي رفض الموت وازعاً للحياة أو مبرراً للوجود؟ هذا سؤالٌ من أسئلة المسرحية الكبيرة، أسئلة الهوية والمصير. وقد تحبّط النقاد التوانسة في تأويل المسرحية: فظنّ أحدهم أنها مسرحية عن الشيخوخة وأخذ يحاكمها وفقاً لتلك الافتراضات التي تصورها عنها؛ وظنّ آخر أن تمزق العلاقات الأسرية بين الشقيقات، والذي بلغ حد القتل، لا يمكن أن يصدر عن أسرة عربية؛ ومن هنا تصوّر أنها قصة أسرة يهودية، وهي من

صراع الشقيقات يومي إلى نهش الأشقاء العرب بعضهم بعضاً!

مثل هذا التصوير براء. لكنّ الذي فات جلّ هؤلاء النقاد هو أننا لسنا بإزاء مسرحية طبيعية تسخّ الواقع، وإن انطوت على معالجة عميقة لقضاياها، وإنما نحن حيال استعارة درامية تستخدم الشعر المسرحي في أكثر درجاته توتراً وشفافية لسبر أغوار هذا الواقع وتعرية خوافيه والدعوة إلى رؤيته من جديد. فحالة الشيخوخة التي تُبلورها المسرحية تنطوي على شيخوخة مجتمعة برمتها استحالت حياتاً إلى نوع من انتظار الموت وترقبه. والشبق العارم للحياة يشي بأمل هذا المجتمع في التحقق وقد مرّعتّه تصرفاته في التراب فأصبح تحقّقه نوعاً من المراهقة الرخيصة. وصراع الشقيقات إلى حد الموت يومي إلى نهش الأشقاء بعضهم البعض، وإلى الوشاية للغريب والدخيل بإخوتهم بعد أن استحالت الحياة عندهم إلى نوع من الشماتة المرضية، وأصبح دافعهم الرئيسي فيها هو الانتقام الرخيص.

بهذا المنطق الاستعاري تتسع أفق الدلالات في هذه المسرحية الجميلة التي بلغت فيها الكتابة الركحية ذروة جديدة من ذرى تحقّقها على يدي الفاضل الجعابي الذي أبدع عالماً مرعباً الجمال، يتحكم فيه المخرج/المؤلف في كل جزئيات العرض، ويتيح للممثلين التألّق وقد استخرج منهم جميعاً أفضل ما عندهم. وتبلغ اللغة المسرحية فيه درجة عالية من الرهافة والشاعرية. ويصبح تجسيد هذه اللغة على المسرح تشكلاً جمالياً ممتعاً يهيج العين بمناظره وألوانه وحركته، ويمتّع الأذن بموسيقاه ولغته المسرحية، ويحثّ العقل على التأمل والتفكير في واقعنا الإنساني وفي وضعنا العربي الراهن على السواء.

لندن